من الحوادث الأدبية

فطلقها فلست لها بكفء

للاستاذ محمد سيد كيلاني

كان الشيخ علي يوسف صاحب المؤيد صديقاً حميماً للسيد عبد الخالق السادات . وكان للسيد عبد الخالق فتاة جميلة تسمى صفية ، فأغرم بها الشيخ علي وأغرمت هي به وأحب كل منهما صاحبه حباً ملك عليه فؤاده. وقد أعربت صفية عن حبها للشيخ علي في كتاب بعثت به إلى قاضي القضاة الشرعيين ونشر في الصحف. ومما جاء فيه قولها « واعلم يا مولاي أنني راضية بزوجي راغبة فيه لا أختار سواه بديلا مهما كان الأمر . » .

وقد طلب الشيخ علي من والد الفتاة أن يزوجه منها فأخذ يسوف في الأمر حتى إذا ضاق العاشقان ذرعا بهذا التسويف قررا أن يعقد قرانهما دون انتظار لموافقة والد الفتاة . وتم لهما ذلك في مساء الخميس ١٤ يولية سنة ١٩٠٤ إذ هربت الفتاة من منزل والدها وذهبت إلى منزل السيد عبد الحميد البكري وتبعها هناك الشيخ علي يوسف وعقد القران وظهر نبأ ذلك في الصحف.

وما كاد السيد عبد الخالق يطلع على ما نشر خاصا بهذا الزواج حتى ثارت ثائرته وأسرع برفع دعوى أمام المحكمة الشرعية طالباً فسخ الزواج بحجة أن صاحب (المؤيد) غير كفء ليتزوج من بنته وهي هاشمية قرشية . وانتهز أعداء الشيخ علي ومنهم الموبلحي هذه الفرصة الثمينة وانتقموا لأنفسهم منه انتقاماً شديداً فأخذوا يشنعون عليه في المجالس والأندية ويكتبون المقالات الطوال في تجريحه والطعن في نسبه وحسبه وأخلاقه واتهموه بخطف فتاة شريفة وخداعها والتغرير بها مما لا يتفق مع الأخلاق والدين والذمة والضمير. وذكروا أنه كان مسيحياً وأسلم فهو بهذا غير كفء في نسبه . قال أحد شعراء ذلك العصر

لبعض المسيحيين جئت مسلماً ... وقلت له قد أصبح الشيخ مجرما
وجر عليكم سبة وفضيحة ... بفعلته الشنعا فأضحى مذمما
لأن لسان الدفع أثبت أنه ... ليسى وعبد النور صح له انتما
فقال المسيحي لم يشنا فاننا ... يرثون منه منذ أن صار مسلما
فهلا رأيتم يا بني مصر حادثا ... كهذا الذي قد أغضب الأرض والسما

ولا شك في أن تصوير نسب الشيخ علي يوسف في هذه الصورة أمر لا يتفق مع الحقيقة بل دعا إليه ما تمكن في قلوب أعدائه من غل وحقد . فالشاعر يقول إن التحقيق التاريخي أثبت أن نسب الشيخ علي يرجع إلى أصل مسيحي ومن أجداده يسى وبطرس وعبد النور . ويدعي أنه ذهب إلى بعض المسيحيين وشكا إليه من سوء ما فعل الشيخ علي الذي صحت نسبته إليهم . فأجيبت بأن المسيحيين منه براء مذ صار مسلما . ثم ينتهي من ذلك إلى نتيجة وهي أن الشيخ عليا بفعلته الشنعاء قد أغضب من في السموات ومن في الأرض .

متطبق غاية الانطباق ، كما يلاحظ أن التشبيهات كلها إنما هي تشبيه المعاني المعقولة بالأمور المحسة، وذلك من أفضل ألوان التشبيه وأوقاها بالغرض . على أنهم في هذه الحالة قد يدقون ويبلغون غاية الأمد ، حتى ليجعلون المعنى بارزاً واضحا ، حين يقرنونه بالمشبه به ، فقد نقول الفاجرة لا تتوب ، ولكن كلامك يكون في موضع الشك والتردد ، فإذا قلت كما قالوا : (الماء ما يتروب ، والفاجرة ما يتوب) بلغت بالمعنى غاية الاستحالة ، فلم ير إنسان الماء قد راب ، ولا يطمع أن يراه كذلك ، وهذا شيء مستقر في العقول والقلوب ، فليستقر فيها كذلك أن من المستحيل أن تتوب الفاجرة .

وفي الأمثال الوطنية فلسفة عميقة في بعض الأحايين ، تحتاج إلى تأمل ، وتستدعي الإعجاب ، فمن أمثالهم (المترة تسمح المشى) يضرب للرجل يستفيد الصواب من خطئه ، لأن السائر حين يعثر يتنبه لنفسه ، ويسير سيراً طيباً سمحا ، و (الناس ما يتقطع عودها) و (الحتة المفنة تمفن اللحم كله) و (اللي وراه المشى أخير له الجرى) و(يا حافر حفرة السوء وسع مراقدها) و (الجمل ما يشوف عوجة رقبته) وهي أمثال ظاهرة المعنى وفيها عمق كثير.

وبعد فهذه لمحة صغيرة في الأمثال العامية السودانية ، على قدر ما يسمح به مقال في عجلة ، وإني أستحضر لهذه المناسبة المثل السوداني (على قدر غطاك مد كرعيك) .

علي العماري

المعهد العلمي — أم درمان

وقد شغل الرأى العام فى مصر بهذا الموضوع مدة من الزمن وأصبح حديث الخاصة والعامة . ونظرت المحكمة الشرعية المنعقدة برياسة الشيخ أحمد أبى خطوة هذه القضية وأكتظت قاعة الجلسة بالمشاهدين وبينهم جم غفير من علية القوم وأكابرهم .

المصريون أعاجم

ووقف محامى السادات يطعن فى نسب الشيخ على فقال إنه عجمى لا يعرف له أب . ثم قال إن عامة أهل القرى والأمصار فى هذه الديار أعاجم إلا من من له نسب كالسادة الوفائية . ثم قال إن الشيخ عليا من قرية صغيرة فى الصعيد تسمى باصفورة أهلها كلهم أعاجم فكيف انفرد الشيخ على بينهم بالنسب . ثم التفت المحامى إلى جمهور الحاضرين وسألهم عن نسب موكله وعدم كفاءة الشيخ على للزواج ببنت السادات فصاحوا كلهم فى الجلسة نعترف بشرف السادات ونفكر نسب الشيخ على ، ولم يشذ عن الجمهور سوى محمد امام العبد الذى كان يحرر فى المؤيد . فالتفت إليه أحد الحاضرين وقال : شهادة العبد تحتاج إلى إبراز ورقة العتق .

الصحافة حرفة رديئة

ولما فرغ المحامى من الطعن فى نسب الشيخ على انتقل إلى الطعن فى حرفته فكان مما قاله :

« ... ولنتكلم عن الحرفة فنقول إن حرفة الجرائد المحترف بها حضرة الشيخ على هى حرفة دنيئة فى الأصل؛ والدليل على ذلك أننا رأينا عوام الناس ممن لا حرفة لهم يتخذونها حرفة للتعيش بخلاف بقية الحرف الدنيئة فاننا لم نر من مارسها بغير بضاعة لها. وكيف لا تكون أدنى الحرف وهى ليست إلا عبارة عن الجاسوسية العامة وهى المعدة الاشاعة وكشف الأسرار والله تعالى يقول « ولا تجسسوا »

جهل الشيخ على

ثم انتقل إلى الكلام على جهل الشيخ على يوسف فقال :

« ... وماذا نقول فى رجل يتعرض لتحرير الجرائد وهو لا يعرف مواقع القارات، فقد جاء فى جريدته يوما قوله

« إن الله شرف القارة الأفريقية بالبيت الحرام مع أن البيت الحرام فى آسيا كما يعلمه أطفال المكاتب ومنه قوله فى عدد آخر القامة المعزية ينسبها إلى المعز لدين الله، والحقيقة أنها القلعة الناصرية منسوبة لبانيها صلاح الدين بن يوسف بن أيوب . ومنها قوله فى عدد آخر « هارون الرشيدى وجعفر المنصورى » مع أن الصواب هرون الرشيد وجعفر المنصور . فان قيل إنه أخطأ فى الرشيد قبله من العوام كثير فقياسه المنصور عليه أشد خطأ وقبحاً لأنه اجتهاد فى غير محله . ومنه قوله راويا بيت أبى نواس :

وإذا المطى بنا بلغن محمدا فظهورهن على الرجال حرام

انه فى مدح النبى عليه السلام وإنما مدح به أبو نواس محمد الأمين فى القرن الثانى من الهجرة ، إلى غير ذلك مما يضيق به المقام . »

وكان محمد بك أبو شادى صاحب جريدة (الظاهر) خصما لدودا للشيخ على يوسف ففتح للشعراء بابا على صفحات جريدته سماه « عام الكفء » : وفى ذلك يقول أحد الشعراء

قد كان عام الكف فصلا جامعا ... من أفكه الأقوال للشعراء
واليوم عام الكفء يأخذ دوره ... ويكون ميدانا إلى الآباء
هل بعد هذا للمؤيد عبرة ... إن كان معدودا من العقلاء
هذا قصاص فى الحياة يناله ... من كان معتديا على الشرفاء

ومن عجائب المصادفات أن لفظى « كف » و « كفء » لا يختلفان كثيراً فى الرسم . وقد عرض الشاعر فى هذه الأبيات للنوادر والملح والفكاهات التى وقعت فى هذين العامين والتى جادت بها خواطر الشعراء والكتاب . ثم ذكر فى كثير من الشماتة أن جريدة المؤيد قد عوقبت فى هذه الحملات التى شنها عليه خصومه وذلك لما اقترفه من التشهير فيما سماه « عام الكف »

وقد حكمت المحكمة الشرعية بعدم كفاءة الشيخ على فى هذا الزواج فأبطلته وفضت بفسخ العقد . وفى هذا الموضوع يقول حافظ ابراهيم :

وقالوا المؤيد فى غمرة ... رماه بها الطعم الأشعبى
دعاه الغرام بسن الكهول ... فجن جنونا ببنت النبى
فضج لها العرش والحاملوه ... وضج لها القبر فى يثرب
ونادى رجال باسقاطه ... وقالوا تلون فى المشرب
وعدوا عليه من السيئا ... ت ألوفا تدور مع الأحقب

قالوا لصيق ببيت الرسو ل أغار على النسب الأنجب
زكى أبو خطـــوة قولهم بحكم أحد من المضرب

وهذه الأبيات جاءت ضمن قصيدة مطلعها :

طمت اليراع فـلا تعجبي وعفت البيان فلا تعتبي

وفيها يعبر حافظ عن شعور شديد بالألم والحزن على ماوصلت يه أحوال البلاد . فحينما كان الأجانب يزدادون توغلا فى مرافق لأمة الاقتصادية وكانت يد الاحتـلال تقبض بشدة على رقاب صريين كان الرأى العام مشغولا بهـذه الصغائر ، وذلك بفضل صحف التى تركت معالجة الشؤون الحيوية وانهمكت فى مسائل خصية تافهة وحشت أعمدتها بألفاظ الشتائم والسباب .

وفى الأبيات المتقدمة يحكى لنا حافظ مايقوله أعداء الشيخ لى يوسف فى موضوع الزواج . فهو فى نظرهم قد سقط سقطة شنيعة وأتى أمرا لايتفق مع سنه وهو كهل ولامع عمله وهو محق مهمته الوعظ والارشاد وتقويم المعوج واصلاح الفاسد . هذا العمل الشنيع فى نظرهم قد ضج له العرش والملائكة والضريح نبوى . ومنهم من نادى باسقاطه لأنه لم يكن وطنيا صادقا ل كان يلبس لكل حال لبوسها . فان صفا الجو بين الخـــديو الانجليز انضم إلى جانب المحتلين وطفق يمتدح سياستهم ويثنى بها ؛ وإن حدث غير ذلك تغير تبعا للظروف . وهو فى نظرهم يدعى نفسه نسبا يلصقه ببيت النبوة . وقد اختلق هذا النسب اختلاقا ظل يخدع الناس ويوهمهم أنه من آل البيت حتى جاء أبوخطوة فصل فى الموضوع وأظهر بطلان مايدعيه الشيخ على .

وهذا كله وليد الحقد والضغينة التى طفحت بها قلوب خصوم لشيخ على ، فصوروه فى صورة رجل خارج على القانون الوضعى السماوى ، خارج على العرف والتقاليد ! خارج على أبسط قواعد لمروءة ، خارج على الأخلاق التى تواضع الناس عليها . كما صوروه فى صورة مجرم خطف فتاة عذراء من بيتها وغرر بها وخدعها وهو بهذا العمل قد أنكر تعـاليم الشريعة الاسـلامية وأغضب الله وأغضب رسوله باعتدائه على فتاة من آل بيته على هذا الوجه القبيح نال محمد أبو شادى من قصيدة رفعها إلى الشيخ أبى خطوة قبل ن يفصل فى القضية

الله ينظر والاسلام ينتظر والحق يجأر والبهتان يأمر

وفى ذمامك شرع الله فارع له عهد الوفاء وأنت الحافظ الحذر
وفى يديك لآل المصطفى شرف وعرض طهر فلا يلحقهما الكدر

ومنها .

جناية ثلمت عرض النبى وهل جناية مثلها ياعدل تغتفر
جناية ضجت الأملاك ذاهلة منها وأرجت الأفلاك والعصر

فأنت ترى كيف لجأ الشاعر إلى إثارة العواطف الدينية ، فالله ينظر ، والاسلام فى مشارق الأرض ومغاربها يترقب الحـــكم ، والحق يستصرخ ويستنجد ، والباطل يجد فى الدس والكيد حتى ينتصر على الحق . وهذا الزواج جناية ليس بعدها جناية لأنهـا خدشت عرض الرسول وتحدث عنها من فى السموات ومن فى الأرض . وهكذا جد الشاعر فى الضرب على وتر حساس وصور الشيخ عليا خارجا على الاسلام محطما لأحكام الكتاب والسنة ؛ ثم دعا إلى نصرة الاسلام بابطال هذا الزواج لأن فى ذلك مايرضى الله ورسوله بعد أن أغضبها الشيخ على إغضابا شديدا . ولاشك فى فى أن الضرب على هذا الوتر واشعال العواطف الدينية على النحو المتقدم قد لعب دورا هاما فى القضية فجاءت النتيجة كما يحب خصوم الشيخ على وأبطل الزواج

ولم يترك خصومه بابا يصلح للهجوم عليه إلا ولجوه . فتناولوا ماضيه يوم أن كان فقيرا معدما لايجد مايمسك به رمقه ولامايستر به عورته . وشنعوا عليه فى ذلك تشنيعا كبيرا . انظر إلى أحدهم حين يقول :

قل للمؤيد مادهاك يدك التى صفعت قفاك
فم التقطرس والتمرو ر ألست تذكر مبتداك
أيام كنت ولست تـ ـملك كسرة لتسد فاك
تلج الثياب وكلها فرج يضيق لها سواك
فمن اليمين إلى اليسا ر إلى الأمام إلى وراك
تبلى الرياح خيوطها ويزيد فى البلوى حذاك
تمشى الصباح إلى المسا ء عمي أخو بر يراك
تغشى المنـازل طالبا رزقا لشعر لايـلاك

فانظر إلى الصورة التى فى هذه الأبيات . هى من غير شك

صورة مؤلمة إلى حد بعيد. فأنت ترى رجلا بائسا فى حاجة إلى قطعة من الخبز وقد لبس ثيابا بالية ممزقة من اليمين واليسار ومن الوراء ومن الأمام يقطع الشوارع والطرقات وبيده قصيدة من الشعر فى مدح وجيه من الوجهاء. ثم يذهب إلى دار هذا الوجيه ويمكث أمام بابه ساعات فى انتظار مايجود به عليه من دراهم. هكذا كان الشيخ على يوسف كما صوره هذا الشاعر ويغلب على ظنى أنه الويلحى. ففى هذه الأبيات نلمس بوضوح روح التشفى والانتقام مما أتاه الشيخ على فى «عام الكف» فعبارة «يدك التى صفعت قفاك» تكشف عن الحالة النفسية لشاعر بلغت منه الشهامة مبلغا عظيما وتهيأت أمامه الفرصة فانتهزها وأشبع رغبته فى الطعن والتجريح وانهال على خصمه فى غير شفقة ولا رحمة فأتى بهذه الصورة المزرية المؤثرة وأظهر الملأ حقيقة هذا المدعى المغرور الذى يحاول أن يبدل الستار على ماضيه والذى توهم أن ماضيه قد أصبح مجهولا فراح يدعى لنفسه ماشاء وهو آمن مطمئن.

ولما صدر الحكم بابطال الزواج تهللت وجوه أعدائه فرحا وسرورا وأكثروا من الضحك منه فى المجالس والنواحى وأظهروا الشماتة واتخذوه سخرية وموضوعا للدعابات والفكاهات. قال أحد الشعراء هاجيا ومؤرخا

قل للمؤيد قد رزئـ ـت من الزمان أشد رزء
منعوا صفية بعدما كانت لدائك خير برء
وزعمت أنك فى الكفا ءة مثلها جزءا بجزء
لكن شريعة أحمد قد أرخت هو غير كفء (١٣٢٢)

وقال آخر

عوضك الله وء زى القوم فى عاقبتك
بينا تسوق الشعر وا لهتان من ناحيتك
تغرى لعام الكف لا ترنو إلى داهيتك
إذدار ذاك الكف مو زونا على قافيتك

وقال آخر

حكم أذاقك مره عدلا وعلقمه صفاك
فغدوت منبوذا تفو ح بنتن فحش جانباك
أخجلت شارات الفضيـ ـلة والوسام ومن كساك
بؤ حاملا غضب الذى قدر السقوط لأخريات
سبحان من قسم الحظو ظ فلا ابتدائك ولا انتهاك

وهكذا صب الشعراء القول على رأس الشيخ على فى غير هوادة وقد بات فى حالة يرثى لها وأخذ يتوارى خجلا من الناس ووقف قلمه وانعقد لسانه واضطرب أمره وحاول أن يستغل نفوذه لدى الحكومة لتغيير مجرى الحوادث فلم يفلح، فسكت على مضض وأسلم نفسه للحزن وهو كظيم بينما كان خصومه يروحون ويجيئون وكلهم فرح مسرور بما وقع للشيخ من الاهانة والتحقير. وفى هذه المقطوعات المتقدمة ترى الشعراء يزيدون من ألم الشيخ وحزنه ففيها تعزية على ماأصابه من التفريق بينه وبين صفية التى ادعى أنه كفء لها حتى جاء حكم الشريعة فأثبت ضد مادعى؛ وفيها توبيخ وتعنيف، وفيها سخرية وتهكم، وفيها سرور وشماتة، وفيها تذكير بما فرط منه فى حق الويلحى، وأن الكف الذى هال له وطرب قد دار عليه ووقع على قفاه فى غلظة وخشونة.

ولما استأنف الشيخ على الحكم شرع خصومه ينعون عليه عدم خضوعه وإذعانه لحكم الشرع الشريف ويصورونه فى صورة السادر فى الضلال المتمادى فى الباطل الذى يريد أن ينتهك حرمة بيت الرسول غير مكترث بما فرط منه من الأثم. وفى ذلك يقول أحد الشعراء

كيف التبجح يابن يمـ ـى حكم الشريعة ليس ينفى
أتريد باستئنافه تبقى له بالنقض رمسا
وتكون منتقما بآ ثام الهوى وتطيب نفسا
كذبت ظنونك ليس يحـ ـصل ذا ولو باريت قسا
فالحكم فى إحكامه كالراسيات ثبتن أسا
لايستخف به سوى من فى دجى الغفلات أمسى
فدع الأمانى الباطلا ت ينفضه معنى وحسا
فالشرع يأبى أن يرى فى عالم الإسلام رجسا

وهكذا تساقطت اللطمات على وجه الشيخ على كل يوم من خصومه. فصبر عليها صبر العاجز الضعيف الذى لاحول له ولاقوة

ولم يترك أعداؤه فرصة تمر دون أن يتخذوا منها وسيلة لتشديد الحملة على عدوهم اللدود، فما فكر في استئناف الحكم حتى وجد خصومه بابا يدخلون عليه منه فرموه بالعصيان لأحكام الشرع ومحاولة تحطيم الشريعة واتهموه بالكفر والمروق والخروج على الدين الحنيف. وكان هذا يحز في نفس الشيخ على حزا عنيفا ويؤلمه ألما شديدا. وكيف لا يتألم ولا يتضجر وهؤلاء خصومه يتهمونه في دينه ويشنعون عليه في معتقده ويخاطبونه بقولهم يا ابن يسى وبطرس وعبد النور؟ وهاهي المحكمة الشرعية قد أبطلت نسبه الذي ادعاه لنفسه وحكمت بعدم كفاءته لمصاهرة السادات.

لقد عجز الشيخ على عن الدفاع عن نفسه عجزا تاما ولم يستطع أحد من أصدقائه أن يرد عنه ذلك الهجوم العنيف الذي قام به خصومه ضده وبقي على تلك الحالة المؤلمة حتى أنقذه السلطان عبد الحميد فأنعم عليه في أول سبتمبر ١٩٠٤ بنوطي الامتياز الذهبي والفضي وكانا من أرفع أنواط الدولة العليا وإلى هذا يشير حافظ بقوله:

وما للخليفة أسدى اليه ... وسامًا يليق بصدر الأدب

وحينئذ استطاع صاحب المؤيد أن يفرج عن نفسه قليلا وأن ينهض واقفا أمام أعدائه. وتوالت عليه برقيات التهنئة من الكبراء والعظماء في القاهرة والأقاليم وأخذ ينشر هذه البرقيات لعله بذلك يخرس خصومه ويقطع ألسنتهم، وطفقت الوفود تحج إلى داره مهنئة بهذا الأنعام السامي الذي يعرب عن رضاء أمير المؤمنين عن الشيخ علي. وفي ذلك يقول حافظ:

فما للتهاني غلى داره ... تساقط كالمطر الصيب
وما للوفود على بابه ... تزف البشائر في موكب

وحافظ هنا ساخط متبرم مما يرى. فبينما الناس يتهمون الشيخ عليا في أخلاقه ودينه إذا بهم يسرعون إلى داره لتهنئته بما ظفر به من الإنعام السامي. ثم يوجه حافظ الخطاب للمصريين فيقول:

فيا أمة ضاق عن وصفها ... جنان الفوه والأخطب
تضيع الحقيقة ما بيننا ... ويصلى البريء مع المذنب

والذي لاشك فيه أن حافظ لم يوفق هنا إلى محجة الصواب فالذين هنئوا الشيخ عليا غير الذين شنوا عليه هذا الهجوم العنيف، والذين أسرعوا إلى داره غير الذين أجروا أقلامهم طعنا فيه وتجريحا. ولكن حافظا وكان ساخطا ناقما تجاهل هذه الحقيقة، ووجه نقده المر إلى الأمة المصرية بأجمعها كأن المصريين في نظره اشتركوا كلهم بغير استثناء في الحملة على الشيخ علي أو كأنهم ذهبوا كلهم بغير استثناء إلى دار الشيخ علي لتهنئته!

وقد اتخذ أصدقاء الشيخ على هذا الإنعام وسيلة لمدحه وتقريظه والتعريض بخصومه والتنديد بهم. فهذا شاعر يقول:

لا والذي أعلى ذراك ... واحاط بالحسنى سماك
وأجل قدرك في الأنا ... م وحل عقدة من شناك
لن يبلغ الحساد ما ... من أجله نصبوا الشراك
ويحفروا ويثوبوا ... ويأبطوا شر المسراك
واستنفدوا جهد السبا ... ب وبالغوا في الانهماك
إن العدى مهما غلوا ... أو أغرقوا في الاحتشاك
لن يلحقوا في سعيهم ... إلا غبارا من مداك

وهكذا حاول صاحب المؤيد أن يعالج حالته النفسية السيئة وأن ينفض عن نفسه ماسقط عليه من غبار كثيف بسبب هذا الحادث المشئوم، حادث الزوجية. وأخذ نجمه يعلو ومكانته تسمو عند الخديو عباس حتى أسندت إليه في سنة ١٩١٢ مشيخة السجادة الوفائية.

محمد سيد كيلاني

من الأدب الفرنسي

للأستاذ أحمد حسن الزيات

مجموعة من أروع القصص القصيرة وأبلغ القصائد المختارة

عن نوابغ كتاب فرنسا وشعرائها

الثمن ٢٥ قرشا عدا أجرة البريد